تجربة الصحافة الإسلامية في العالم العربي
بعض الملاحظات الأولية

د. بوعلي نصير
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة- الجزائر

مدخل:

لم يكن الإعلام مدرجا على سلم الأولويات لدى حركة الإحياء الديني الحديثة في العالم العربي والإسلامي، ولم يكن هناك- في اعتقادي- وعي حقيقي وجاد بقيمة الإعلام وخطورته في تشكيل الحياة في المجتمع الجديد والمعاصر، ومنذ دخول الصحافة في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي لم تظهر أي بصمة تذكر للفعاليات الدينية فيها حتى أنه يصح القول بأنه من الصعب الإشارة إلى عمل صحفي إسلامي مهم كان له حضوره الكبير في الصحافة العربية. يقول جمال سلطان رئيس تحرير مجلة المنار الجديد: «إن التيارات السياسية والفكرية الليبرالية واليسارية نشطت في مجال الصحافة وحققت حضورا كبيرا واستفادت كثيرا من قيمة وتأثير الإعلام بما حقق لها حضورا اجتماعيا وسياسيا أكبر بكثير من حجمها الفعلي والعملي في ساحة الواقع السياسي والاجتماعي»[1].

نعتقد أن الاستثناء الوحيد الذي يمكن ذكره هو صحيفة العروة الوثقى لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وصحيفة البصائر لعبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي اللتان كان حضورهما كبيرا في البلدان العربية المختلفة. وهو الاستثناء الذي يثبت القاعدة. ومن الصعب في اعتقادي أن ندرج هاتين الصحيفتين في مقام

العمل الإعلام كحرفة وكمهنة، وإنما كانتا أشبه بالمنشورات الفكرية التي تستنهض الهمم وتحرك الخواطر، وتلك مرحلة تقتضي هذه الضرورة.

إن هذا الميل إلى الصحافة الفكرية- إن صح التعبير- أصبح ظاهرة ملازمة للتجربة الإسلامية في التعامل مع الإعلام الراهن (الجديد). فمعظم الجهود الإسلامية تتمثل في مجلات وعظية يغلب الرأي فيها على الواقعة. وتعتمد في أجناسها الإعلامية على المقال والرأي دون الاهتمام بالأجناس الأخرى المتنوعة للعمل الصحفي كالخبر والتقرير والتحقيق والريبورتاج والصورة والكاريكاتير وغير ذلك.

بدون شك هناك أسباب تاريخية ونفسية وذاتية لغياب الإدراك بخطورة الإعلام وقيمته في المجتمع لدى أصحاب هذه التجارب. لعل أهم هذه الأسباب هو طبيعة الحضور الإسلامي في المجتمع الذي يعتمد على الاتصال المباشر المرتبط بالمساجد وخطب الجمعة ودروس العلم، وكانت هذه لها مساحات ضخمة من التأثير والتواصل، في المقابل كان ينظر هؤلاء بشيء من التعالي أو عدم الاكتراث بالبدائل الحديثة المتمثل في الصحافة والتلفزيون والإذاعة، ويشعرون بالغنى عنها. فهم بقدر ما يمتلكون الرسالة الحضارية يفتقرون للوسيلة. وقد عبر عزي عبد الرحمن في الثمانينيات من القرن العشرين عن الأزمة التي يعانيها الإعلام الإسلامي في العالم العربي بقوله أن هذا الإعلام يتعثر في عصر التكنولوجيا أو في عصر الوسيلة[2]. وفتحت هذه الدراسة- فيما بعد- آفاق التفكير في كيفيات التحكم في آليات الصحافة والإعلام، وأصبحت هذه الأفكار بداية من التسعينيات من القرن

الفارط مجسدة فعليا من خلال تنامي الوسائل والصحف الإسلامية ذات الصبغة الإسلامية.

وتأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على تجربة الصحافة الإسلامية ضمن سياقها الكلي مع أخذ نموذج الصحافة في الجزائر. ولكن قبل ذلك ضروري كما هو معروف منهجيا تحديد مفهوم الصحافة الإسلامية والتساؤلات المرتبطة به كدلالات تبحث عن مدلولات عملية.

أولا: مفهوم الصحافة الإسلامية:

يقول عبد الحليم عويس مصطلح الصحافة الإسلامية مصطلح حديث الاستعمال بالنسبة لنشأة الصحافة في العالم الإسلامي والعربي. ويرى أن السبب في ذلك هو نشأة الصحافة في العالم العربي وتطورها أيضا قد ارتبط بأمرين:

أولهما: الظروف السياسية التي يتحكم في مسيرتها الاستعمار ويستغل العملية التربوية والتثقيفية وقد أبعد الإسلام عن مجالات التوجيه وعلى رأسها أو في مقدمتها الصحافة. وثانيهما: أن النشأة الصحافية قد قامت على أيدي أناس ليسوا من المسلمين في جملتهم و لم يشذ عن هؤلاء إلا قليلون ضاعت أصواتهم وسط أصوات الكثرة التي تساندها القوى الاستعمارية[3].

هذا الرأي لعبد الحليم عويس لا نتفق معه في كون مصطلح الصحافة الإسلامية حديث النشأة. إذ أن الصحافة الإسلامية أو الإصلاحية ظهرت كمصطلح وكمضمون غداة الاستعمار وفي كل البلاد العربية بل كانت الرافد الأساسي للثقافة العربية والإسلامية والمناهض الكبير لخطط الاستعمار. كما أن

الصحافة الإسلامية ظهرت بشكل آخر منذ ضحى الإسلام ممثلة في الرسائل السياسية والاجتماعية المخطوطة المتبادلة بين الرسول (عليه الصلاة والسلام) والملوك وبينه وبين الصحابة، كما ظهرت بأشكال مختلفة في عهد الخلفاء الراشدين، كما ظهرت في الكتب ذات الطابع الإخباري والاجتماعي الشامل.

قد يتبادر إلى الذهن بأن الصحافة الإسلامية هي تلك الجريدة أو المجلة أو الدورية التي تتخذ شارة الإسلام شعارا أو اسما لها وتلتزم بالخط الإسلامي منهجا وهدفا. وقد يتبادر أيضا أن الصحافة الإسلامية هي التي تلتزم بالخط الإسلامي منهجا وهدفا حتى ولو لم تتخذ شارة الإسلام شعارا لها. وقد يذهب إلى هذا الكثير على أساس أن حالها هذا هو كحال الصحف الأخرى أو مفهوم الصحف الأخرى.

يطرح عبد القادر طاش جملة من التساؤلات التي تبحث في اعتقادي عن إجابات لمفهوم الصحافة الإسلامية نوجزها فيما يلي: هل الصحافة الإسلامية صحافة دينية متخصصة، أم هي صحافة عامة مستلهمة لروح الدين ومصطبغة بتوجيهاته؟ هل هي صحافة حزب أو جماعة أو تيار، أم هي صحافة قيم ومبادئ وروح غالبة حتى ولو لم يصدرها حزب يرفع شعار الإسلام أو تيار يتبنى توجهات إسلامية؟ هل هي صحافة يصدرها مسلمون وتتوجه لغير المسلمين بهدف دعوتهم إلى الإسلام؟ ما نوع الجمهور الذي تتوجه إليه الصحافة الإسلامية هل هو جمهور خاص أم عام؟ هل تتجه الصحافة الإسلامية إلى الملتزمين بالدين أم إلى النخبة المثقفة الواسعة أم إلى عامة الناس أم تتوجه إلى هؤلاء جميعا؟ ما هو المنهج الذي يميز الصحافة الإسلامية في معالجتها وطرحها عن «الصحافات» الأخرى؟ وبنحو أكثر

دقة، ما الصبغة التي يمتاز بها هذا اللون من الصحافة هل هي الصبغة الإيديولوجية الملتزمة أم هي الصبغة الموضوعية المحايدة؟ هل هي صحافة قضية ورسالة أم صحافة وصف وأخبار أم هي مزيج من هذا وذاك؟ وفي مجال فنون التحرير الصحفي إلى أي مدى يمكنها أن تستخدم هذه التقنيات والفنون والضوابط الشرعية التي لابد أن تلتزم بها[4].

هذه التساؤلات لعبد القادر طاش يرحمه الله- في اعتقادي- تشخص أعراض الأزمة التي تعيشها الصحافة الإسلامية «الاحترافية» المعاصرة. وهي- كما يقول ثانية عبد القادر طاش- أزمة حقيقية لا مصطنعة وقد لا يعي عمقها ومشكلاتها إلا أولئك الذين عايشوا تجربة هذا النوع من الصحافة عن كثب أو أولئك الذين حاولوا غمار البحث والدرس التنظيري للصحافة الإسلامية في الحقل الجامعي الأكاديمي.

وسنحاول نحن الإجابة على بعض من هذه الأسئلة أثناء التحليل ولكن قبل ذلك الإجابة تتطلب العودة إلى تاريخ نشأة الصحافة الإسلامية وتطورها في العصر الحديث لمعرفة ظروف تلك النشأة ومراحل هذا التطور. إذ في غياب الرؤية التاريخية الشاملة يصعب علينا إصدار حكم تعميمي قاطع. ولذلك نقول أن ما سيأتي في المبحث الموالي عبارة عن استعراض تاريخي عاجل قد لا يفي بالغرض التام عن الحقيقة التاريخية للصحافة الإسلامية. وكل ما في الأمر فهي مقاربة تاريخية من خلال بعض المراجع التي لم تحتك بشكل جيد بهذا النوع من الصحافة عبر التاريخ.

ثانيا– الصحافة الإسلامية: أرضية تاريخية:

يبقى في اعتقادي هاجس الصحافة الإسلامية يتطلع إلى إيجاد النموذج المثالي الذي يحاكي الصحافة السيارة الأخرى إن على مستوى الشكل أو المضمون المعالج. وإذا كانت الصحافة الإسلامية أسبق إلى الظهور والنشأة من الأنواع الأخرى إلا أنها إلى اليوم تبحث لنفسها عن مكانة مرموقة لها في الساحة الإعلامية. وإذا كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر والبدايات الأولى للقرن العشرين يسمى بعصر الصحافة المكتوبة في العالم، فإن في العالم العربي يمكن تسميته بعصر الصحافة الإسلامية بدليل أن معظم الصحف التي ظهرت خلال هذه المرحلة في البلاد العربية كانت صحفا إسلامية وإصلاحية.

بدأت أولى إرهاصات الصحافة الإسلامية فيما كتبه رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده في جريدة الوقائع المصرية عن الفكر الإسلامي وتاريخه بقصد فهمه والإحاطة به وعن البدع والخرافات بقصد تنقي المجتمع منها[5]. وكذا فعلت روضة المدارس عندما تحدثت عن الاجتهاد والتجديد ودحض شبهة التعارض بين الدين والكشوفات العلمية الحديثة[6]. وصدرت صحيفة العروة الوثقى من باريس عام 1884. وتعد هذه الصحيفة حسب المؤرخين أم المجلات الإسلامية التي صدرت بعد ذلك، وقد أرست قواعد الدعوة إلى التمسك بالأصول الإسلامية التي كان عليها السلف وتقوية الصلات الاجتماعية بين الأمم.

وقد اشترك جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في إصدار هذه الصحيفة (أي العروة الوثقى) أيام الاحتلال الإنجليزي لمصر وقد توقفت عن الصدور بعد ثمانية أعداد فقط من إصدارها[7]. ثم ظهرت مجلة المنار في عام 1889 فحملت الجانب

الثقافي من رسالة العروة الوثقى بحيث صارت امتدادا ثقافيا لها، وكان يدير هـذه الصحيفة محمد رشيد رضا[8]. ثم ظهرت مجلة مكارم الأخلاق في سنة 1900 وتقوم هذه المجلة بوظيفة الدعوة إلى الله ونشر الفضيلة ومحاربـة البـدع والرذائـل في المجتمع[9].

يقول عبد العزيز شرف، إن مسيرة الصحافة الإسلامية في مصر توالـت في الصدور بين نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وحتى عام 1910، إذ كانت تصدر في كل سنة مجلة منها وقد توقف بعضها عن الصدور لأسباب شتى، كوفاة مالكها أو هجرته أو لأسباب أخرى. ولا تزال بعض هذه المجلات قائمة ومستمرة بالاسـم الأصلي في مصر مثل مجلات: "الأزهر" و"المنار" و"مكارم الأخلاق" و"التقـوى" و"الإسلام"، أو باسم جديد مثل: "التصوف الإسـلامي" و"رسـالة الإسـلام". ومازالت تصدر- كما يقول- حتى الآن حوالي 22 مجلة إسلامية عن هيئات رسمية وجمعيات وطرق صوفية وأحزاب سياسية وأفراد والغالبية العظمى منها شهرية أو أسبوعية[10].

وإذا عدنا مرة أخرى إلى التاريخ نجد عناوين لصحف إسلامية ظهرت فيما بين الحربين العالميتين يذكرها المؤرخون فيما يلي[11]:

جريدة "الإخوان المسلمين" التي أصدرها الشيخ طنطاوي جوهري وكانت أسبوعية صدرت في عام 1933 ثم انتقل امتيازها بعد ذلك إلى حسن البنا وتحولت إلى صحيفة يومية تهتم بشكل معتبر بالشؤون الإسلامية وكان لها تأثير كبير علـى الشباب المصري الذي وجد فيها- حسب الملاحظين- متنفسا عما يشعر به مـن السخط والغيظ.

ثم صحيفة "النذير" وهي إحدى صحف الإخوان المسلمين، أسبوعية صدرت عام 1938 وكانت دينية سياسية. ثم اعتزلت جماعة الإخوان المسلمين وانضمت إلى جماعة دينية باسم "شباب محمد".

فمجلة "الشبان المسلمين" وهي مجلة إسلامية علمية تهذيبية شهرية صدر عددها الأول في مارس 1929 عن جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.

ثم ظهرت جريدة "الجهاد" وهي يومية أصدرها محمد توفيق دياب سنة 1931 وكانت ميولها واتجاهاتها عربية إسلامية. وفي عام 1945 صدرت صحيفة الثقافة الإسلامية وكانت تابعة للرابطة الإسلامية[12].

وأصدر حسن البنا مجلة "الشهاب" في سنة 1947، أي بعد الحرب العالمية الأولى، وقد جاء في افتتاحية العدد الأول منها: «مجلة إنسانية الاتجاه، إسلامية المنهج، غايتها خدمة دعوة القرآن وتجلية فضائل الإسلام والدفاع عن أحقية العقيدة (الإيمان بالله)». واستمرت هذه المجلة في الصدور بشكل- على ما يبدو- غير منتظم إلى غاية 1949. وهناك مجلات وصحف أخرى صدرت خلال هذه الفترة وهي: مجلة "الهداية" في عام 1910، وصحيفة "هدى الإسلام" في عام 1934 ومجلة "الهدي النبوي" عام 1938 ومجلة "منبر الإسلام" في عام 1943[13].

أما في العراق فمن أهم وأبرز الصحف الإسلامية خلال هذه الفترة: مجلة "العلم" وهي شهرية دينية فلسفية سياسية، ظهرت ضمن عالم الصحافة بعد إعلان الدستور العثماني: لصاحبها محمد علي هبة الدين السهرستاني من علماء الدين المعروفين في العراق. وقد صدر عددها الأول في 29 مارس 1910 ومما جاء في مقال لها تحت عنوان، الصحافة: «أليست الصحافة عينا مراقبا ولسانا ناطقا وخطيبا

صادقا ودرعا واقيا ومعلما هاديا ومؤدبا ناصحا وصراطا واضحا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. لا تحمي في الباطل حميما ولا تهضم في الحق خصيما، وكل صحيفة أخطأت هذا الصراط فعلى الأمة تأديبها ولو بالسياط»[14]. ثم ظهرت مجلة "تنوير الأفكار" وهي مجلة دينية سياسية خادمة للدين والعروبة، تأسست في سنة 1910 لصاحبها عبد الهادي الأعظمي، وقد صبت جل اهتمامها على نشر مبادئ الدين الإسلامي والتعريف بمشاهير العرب وتفسير القرآن الكريم[15]. ثم ظهرت مجلة "الرصافة" في سنة 1913 وهي مجلة دينية تاريخية، أنشأها في بغداد عمر صادق الأعرجي. وهناك مجلات وصحف إعلامية أخرى صدرت في هذه الفترة في العراق وهي: مجلة "سبيل الرشاد" عام 1912، جريدة "صدى الإسلام" عام 1915، مجلة "المرشد" عام 1925، مجلة "الهدى" عام 1928، جريدة "اليقظة" عام 1924، أسبوعية "الهداية" عام 1930، صحيفة "صدى الإسلام" عام 1930، صحيفة "الاعتصام" وصحيفة "الصراط المستقيم".

وفي المملكة العربية السعودية فمن أهم وأبرز الصحف الإسلامية خلال هذه الفترة: جريدة "القبلة" وهي جريدة دينية سياسية، وقد ظهرت في العهد الهاشمي بمكة المكرمة في سنة 1916 وكانت تصدر مرتين في الأسبوع وكان على رأس إدارتها محمد الدين الخطيب. ثم مجلة الإصلاح وهي صحيفة دينية علمية اجتماعية أخلاقية تصدر بمكة المكرمة مرتين كل شهر وقد صدر عددها الأول في سنة 1929. وذكر مديرها محمد حامد الفقي في خاتمة الجزء الأول منها: «أنه كان يتمنى أن يصدر صحيفة دينية علمية تضم صوتها إلى صوت المصلحين وتتعاون وإياهم على ما هم بسبيله من دعوة إلى الحق وإرشاد إلى الصلاح»[16]. ثم ظهرت

مجلة الموضوعات الدينية والتأريخية وعلى الأخص فيما يتصل بالحج وشؤونه. فمجلة "النداء الإسلامي" في سنة 1937 بمكة المكرمة وهي مجلة دينية اجتماعية واتخذت من الآية القرآنية الكريمة ﴿**ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار**﴾ (آل عمران: 193) شعارا لها. وهي مجلة شهرية. وقد أوضح المحرر في افتتاحية العدد الأول الغرض من إصدار هذه المجلة، وهو إيجاد التآلف والتعارف بين العنصرين الكريمين العربي والجاوي (لغتهم الملايوية) وخدمة الدين والإسلام والوطن[17].

وفي سوريا صدرت مجلة "التمدن الإسلامي" وهي مجلة إسلامية أدبية شهرية، صدر عددها الأول في سنة 1934 عن جمعية التمدن الإسلامي بدمشق. ثم مجلة "الاعتصام" في حلب وهي شهرية أنشأها عبد الله المعتز وعون الله الإخلاص في سنة 1929. وفي نفس السنة (أي 1929) صدرت مجلة "المجلة الإسلامية" تحت إشراف محمد علي الكمال[18].

وفي لبنان يروي المؤرخون عن صدور جريدة "الإقبال" في عام 1902 وهي جريدة إسلامية ناهجة خطة الصدق في أخبارها والاعتدال في مشربها وكان صاحبها الشيخ عبد الباسط الأنس. ثم مجلة "التمدن الإسلامي" التي أنشأها عبد الحليم مراد وعبد الله الشامي في عام 1927[19].

وفي تونس أصدر محمد الصالح بن مراد مجلة "شمس الإسلام" في عام 1936. ثم أصدر محمد صالح النيفر مجلة "الشبان المسلمون" في عام 1947. وظهرت صحيفة "الإرشاد الديني" لصاحبها محمد الطنجي في المغرب في عام 1939. وفي الأردن صدرت مجلة "الحكمة" وكانت شهرية لصاحبها نديم الملاح في سنة

1932[20]. أما في فلسطين فقد صدرت بها خلال هذه الفترة (ما بين الحربين العالميتين) عدة صحف أبرزها: "الجامعة الإسلامية" في عام 1933 وجريدة "الصراط المستقيم" في عام 1924. وكانت تصدر مرتين في الأسبوع ثم أصبحت يومية بتاريخ 1936/06/05 واستمرت في الصدور حتى وقعت النكبة[21].

ثالثا– الصحافة الإسلامية: حالة الجزائر:

عرف المجتمع الأوربي الصحافة منذ زمن بعيد، ثم عرفها من بعده المجتمع العربي والمشرق تحديدا. وتعد الجزائر رائدة في مجال الصحافة المكتوبة إذا ما قورنت بشقيقتها تونس والمغرب. ظاهرة الصحافة في الجزائر كانت في البداية فرنسية، فبعد احتلال الجزائر احتاجت الإدارة الفرنسية إلى وسيلة إعلامية بمثابة الناطق الرسمي للاستعمار الفرنسي، فكانت أول جريدة فرنسية هي "بريد الجزائر" (Le Courrier d'Alger)[22] التي تأسست فوق أرض الجزائر، وتبعت هذه الصحيفة صحف أخرى كولونيالية.

يقول إحدادن زهير أن عدد الصحف التي ظهرت في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين قد بلغ 150 صحيفة ويصنفها إلى عدة أصناف هي: الصحافة الحكومية،صحافة أحباب الأهالي، الصحافة الأهلية، الصحافة الوطنية[23]. ولن نتحدث هنا عن أنواع هذه الصحافة فكتابات وأبحاث إحدادن زهير وحدها كفيلة بتغطية أبعاد هذه الصحافة والسياقات السياسية والاقتصادية والثقافية التي ميزت ظهورها في الجزائر خلال هذه المرحلة (أي قبل الاستقلال). ويختص الحديث هنا عن الصحافة الإسلامية أو الصحافة الإصلاحية.

يشير كثيرون إلى أن الصحافة الإصلاحية في الجزائر بدأت في الظهور منتصف العشرينيات عندما تأسست "المنتقد" و"الشهاب" سنة 1925، والتفاف العناصر الإصلاحية حول الحركة التي بدأ عبد الحميد بن باديس بتنظيمها، استنادا إلى أهمية ذلك وإلى طبيعة المرحلة التي اشتد فيها الصراع بين أنصار الإصلاح وخصومهم. وعلى الرغم من أهمية هذه الآراء، فإننا لا نستطيع تجاهل المحاولات الأولى التي سبقت هذه المرحلة، حيث ظهرت بعض الصحف التي تبنت اتجاه الإصلاح الاجتماعي قبل هذه الفترة[24]، ولهذا نعتقد أن نشأة الصحافة الإصلاحية بدأت مع أول جريدة ظهرت وتبنت منهج الإصلاح مرورا بالمنعطف الهام في مسار العمل الإصلاحي الذي بدأ مع عبد الحميد بن باديس وظهور المنتقد[25]. وقد ظهر العدد الأول من هذه الجريدة بتاريخ 2 جويلية 1925، وكان الهدف منها هو الخروج بالدعوة الإصلاحية من النطاق الجهوي (قسنطينة) إلى المستوى الوطني. وجاءت هذه الجريدة «متحررة وداعية للنهضة والوطنية بأسلوب واضح وحماسي... تلقاها الشباب وأصحاب الفكر العربي النير بحماس أيضا»[26]. انضم إليها خيرة الأقلام العربية في ذلك الوقت مثل مبارك الميلي والطيب العقبي وأبو اليقظان والشاعر بن محمد العيد آل خليفة ومحمد الهادي السنوسي، فكانت بحق نقطة تحول في تاريخ الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر وتميزت عن غيرها من الصحف في أسلوبها ولغتها وأفكارها[27]. لكن جريدة المنتقد لم تلبث أن توقفت عن الصدور بأمر الحكومة الفرنسية بعد أن عاشت أربعة أشهر وصدر منها ثمانية عشر عددا[28]. ظهرت بعد جريدة المنتقد جريدة الشهاب وهي خلقا لها في المبدأ والغاية. عرفت "الشهاب" إقبالا كبيرا من القراء واستأثرت باهتمام المفكرين الجزائريين الذين كانوا حريصين على اقتنائها، ويرجع ذلك إلى اهتمامها بمعالجة

الموضوعات السياسية والثقافية في الجزائر. وتتبع حركة النهضة ومراحلها، وأهم خدمة علمية قدمتها الشهاب للمجتمع الجزائر هي تسجيلها لدروس التفسير والحديث للشيخ ابن باديس تحت عنوان "مجالس التذكير"[29].

ولأن الشهاب كانت تصدر في فترة تأسيس جمعية العلماء فقد اهتمت بتسجيل أخبارها وأهدافها وبياناتها وبلاغاتها ومتابعة أنشطتها. وبهذا تكون الشهاب أول صحيفة عرفت بجمعية العلماء وبأعمالها.

كما ظهرت في فترة العشرينيات صحيفتان إصلاحيتان هما "صدى الصحراء" و"الإصلاح" ظهرت الأولى في بسكرة سنة 1925 لمديرها ورئيس تحريرها أحمد بن العابد العقبي وشارك في تأسيسها الأمين لعمودي والطيب العقبي ومحمد العيد وتوقفت هذه الجريدة في سنة 1926 بعد سنة من صدورها. أما جريدة الإصلاح أنشأها الطيب العقبي في بسكرة أيضا في عام 1927 لكن لم يصدر منها سوى بضعة أعداد لظروف مادية بحتة[30].

أتيح لجمعية العلماء في فترة حياتها إصدار أربع صحف أسبوعية ابتداء من سنة 1933، أي بعد أن مر على ظهورها ما يقارب السنتين، وهي بالطبع صحف تعبر عن اتجاه الجمعية في الإصلاح والنهضة الإسلامية والتعليم العربي ومحاربة البدع والطرق المرتبطة بالإدارة الفرنسية.

ويشير الإبراهيمي إلى أن الجمعية مرت في حياتها بثلاثة أطوار، وهذه الأطوار هي طور التمهيد وطور لإزالة الأنقاض وطور البناء والتشييد[31]. وكانت أسماء جرائدها رموزا إلى أطوارها.

كانت جرائد الجمعية الأولى: السنة، والشريعة والصراط هي أقصر جرائدها عمرا بفعل قرارات التعطيل المتتابعة، فلم تعش كل واحدة منها أكثر من بضعة أشهر. وكانت رابع جريدة تصدرها جمعية العلماء المسلمين بعد سنتين من تعطيل الصراط هي البصائر، حيث استغل مسؤولو الجمعية رحيل "جان ميرانت" عن الولاية العامة ليخلفه المدير الجديد "ميو" ليقدموا له طلبا بمنحهم رخصة لإصدار جريدة، وعبروا له أن مقصد الجمعية هو العناية بتربية الشعب وتهذيبه وتعليمه لغته ودينه بعيدا عن السياسة، فمنحهم الرخصة التي أرادوا وظهرت البصائر[32]. وتعد البصائر السلسلة الأولى والثانية من أهم جرائد الجمعية وأكبر الصحف الإصلاحية العربية وأوسعها انتشارا وأعظمها أثرا في النهضة الوطنية. جاءت لتواكب طورا من أطوار حياة جمعية العلماء هو طور البناء والتشييد.

وقد ظهر في هذه المرحلة عدد من الصحف المساندة للاتجاه الإصلاحي الوطني كـ: "المرصاد" و"الليالي"، و"أبو العجائب" و"الوفاق" و"الحارس" و"الدفاع" (وهي صحيفة إصلاحية باللغة الفرنسية (La défense)[33].

بالإضافة إلى ذلك عرفت صحف أبي اليقظان امتدادا إصلاحيا كبيرا في الأربعينيات ولكن بأسلوب راديكالي هزلي يختلف عن أسلوب الجمعية. ومن صحف أبي اليقظان نذكر: السبتان، النبراس، الأمة، الفرقان... إلخ.

وعموما لعبت صحف الجمعية دورا بارزا في تطور الصحافة العربية في الجزائر واستطاعت مع مدارسها أن تعيد للغة العربية كيانها من جديد وأن تنشئ جيلا جديدا من الكتاب والشعراء. كما لا ننسى تأسيسها أيضا لجريدة باللغة الفرنسية (Le jeune musulman) وكانت موجهة لأنصار الإصلاح المتعلمين

بالفرنسية وللرأي العام الفرنسي[34]. كما لا ننسى الدور الإيجابي للفضيل الورتلاني خلال هذه المرحلة الذي ساهم في الإصلاح من خلال إصداره لصحيفة بشرق البلاد يقال أنها تجمع بين اللسان العربي والأمازيغي[35].

رابعا- الصحافة الإسلامية: الولادة الثانية في مرحلة التعددية:

اكتظت الساحة الإعلامية في الجزائر بعد دخول مرحلة التعددية وصدور قانون الإعلام سنة 1990 الذي يقر بحرية النشر في مجال الصحافة المكتوبة، اكتظت بالعناوين الصحفية ذات الصبغة الإسلامية. وما يلاحظ في البداية على هذا النوع من الصحافة أنها تعددت طبقا للجهة التي تصدرها. فهناك عناوين صحفية إسلامية لسان حال الأحزاب، وأخرى تابعة للحكومة وأخرى لجمعيات خيرية، وأخرى صحافة فردية يصدرها أشخاص إلى صحافة تجارية تصدرها مؤسسات ذات طابع تجاري وهكذا. وقد بلغ عدد العناوين الصحفية الإسلامية خلال مرحلة التعددية في الجزائر بأزيد من عشرين عنوانا صحفيا[36]، معظمها- إن لم نقل كلها- عبارة عن دوريات أسبوعية. اتسم هذا النوع من الصحافة بالتقطع أحيانا (أي أنها تصدر بشكل غير منتظم) وبعدم الاستمرارية أحيانا أخرى. ويمكن رصد مميزات هذه الصحافة في النقاط الآتية:

أ- صحف إسلامية توقفت من تلقاء نفسها: ويعود السبب الرئيسي وراء ذلك إلى غياب مصادر تمويل مالية تساعدها على النمو والتطور. ومن أمثلة الصحف التي توقفت من تلقاء نفسها نذكر صحيفة الأمة (لسان حال حركة الأمة) التي لم تدم أزيد من ستة أشهر، جريدة الأصالة (تابعة لجمعية العلماء المسلمين برئاسة الشيخ عبد الرحمن شيبان) وهي شهرية و لم تدم أكثر من سنة،

جريدة "L'Eveille" وهي تابعة للقطاع الخاص استمرت ستين ثم توقفت، جريدة النهضة (تابعة لحركة النهضة) وتوقفت بعد سنة من صدورها... إلخ.

ب- صحف إسلامية تم توقيفها من طرف جهات في السلطة لعوامل كثيرة، منها تعمدها نشر مقالات سياسية "نارية" مخالفة لقانون الإعـــلام أو وقوعهـــا في السب والقذف والمساس بالأمن العام، أو تم توقيفها لأغراض أخرى مجهولة. ومن أمثلة هذه الصحف، جريدة المنتقد (لسان حال الجبهة الإسلامية)، البلاغ (جريدة خاصة)، جريدة النور (تصدر بشرق البلاد)، جريدة العقيدة (حكومية تصدر عن مؤسسة النصر بقسنطينة) وتم توقيفها لأسباب إدارية. مع الإشارة أن معظم هـــذه الصحف كان نشاطها في ظروف أمنية صعبة، بل يمكن القول أنها ولـــدت بـــين المطرقة والسنداد، كما أن دورها كان سياسيا أكثر منه إعلاميا الشيء الذي جعلها في صدام مستمر مع النظام.

جـ- صحف إسلامية تصدر بشكل غير مستقر بسبب كاهل الديون وعقدة الرأسمال الخاص. مثال هذه الصحف التي بقيت تصدر متقطعة: جريدة النبأ (حركة مجتمع السلم)، جريدة العربي (وهي خاصة)، أخبار الأسبوع (خاصة تصدر بشرق البلاد)، اقرأ (تابعة لثلة من المثقفين)... إلخ.

ويمكن تشخيص أعراض الأزمة التي تعاني منها الصحافة الإسلامية الراهنـــة في النقاط التالية على أن تشكل هذه النقاط فرضيات قابلة للبحث والدراسة:

- إن الصحافة الإسلامية تنظر إلى الرسالة الإعلامية على أساس أنها صورة من صور الإعلام المتخصص في القضايا الدينية كالعبادات والوعظ والإرشاد وهو ما يسمى مجازا بالإعلام الدعوي أو الديني.

- هذه النظرة التجريئية أي حصر نشاطاتها في الجانب الديني المحض و"المسيس أحيانا" أهملت إلى حد بعيد نشاطات الحياة الأخرى الاقتصادية والثقافية والاجتماعية. يقول في هذا الإطار حامد عبد الواحد أن الصحافة الإسلامية لا تعالج الموضوعات التي تمس واقع الحياة وتكتفي بنشر الكتابات والدراسات الوعظية، مما جعل طابعها أقرب إلى طابع الكتب أو النشرات العلمية منها إلى الطابع الصحفي.

- تحصر الصحافة الإسلامية نشاطاتها من الناحية التاريخية في إطار زمني ضيق، فهي توحي بأنها مفهوم تراثي وممارسة محدودة لاستظهار الشخصيات المعنوية والوقائع البطولية المترسبة بكثافة في تراثنا العميق.

- تعتمد الصحافة الإسلامية في أطروحاتها بشكل معتبر على الشخصيات الإسلامية المعاصرة في شكل أحاديث ويقل هذا الاهتمام بالشخصيات الفكرية في المجالات الأخرى.

- تهدف الصحافة الإسلامية إلى تكوين مخيال إعلامية مجسد (ضمير ووجدان إسلامي) يعي الحقائق الدينية ويدركها ويتأثر بها في معتقداته ومعاملاته.

- وفي باب الشكل أو الوعاء الذي يتضمن محتويات الصحافة الإسلامية، فقد اتضح أنها تفتقر إلى استخدام واختيار الأساليب والوسائل والفنون الإعلامية التي لو طبقت كانت تجعل منها إعلاما ناجحا. ويبدو من خلال الملاحظة أنها تعتمد بصفة أخص على نوعين إعلاميين هما: المقال التحليلي والتعليق مع تواجد ضئيل للأنواع الأخرى وغياب شبه تام للخبر الصحفي.

- غياب عناصر ومقومات الإعلام الصحفي المعاصر من صحفيين محترفين ومراسلين دائمين وكذا غياب قنوات اتصال بالمصادر الإعلامية في الداخل والخارج لمواكبة الأحداث المحلية والدولية.

- تعاني الصحافة الإسلامية ضعفا في الانتشار. وهذا العامل له وجهان: أولا، أن الصحافة الإسلامية في مجملها لا تخاطب بمحتواها إلا فئات معينة وهي منحصرة فقط في المتدينين أو المنتمين إليها مما يفقدها سعة الانتشار، عوض أن تخاطب الجميع فتكون بذلك واسعة الانتشار. وثانيا، فإن محدودية إمكانيات التوزيع تعوق انتشارها على نطاق واسع أيضا.

- غلبة الطابع الإيديولوجي في مضامينها على حساب الوقائع والمعلومات مما فقد كثيرا وبالتدريج من مصداقيتها لدى القار العام والخاص.

هذه العوامل في اعتقادي هي التي أدت بالصحافة الإسلامية أن تكون ذات تجربة قصيرة (في الجزائر والعالم العربي). تجربة اتسمت كما سبق أن أشرنا بالتقطع أحيانا وبالتوقف أحيانا أخرى. مما يستدعي على القائمين عليها إعادة التأمل في بنيتها الداخلية وفي محيطها الخارجي والفصل في الكثير من المفاهيم المتعلقة بحرفة الصحافة. دون الخلط في وظيفة تلك الصحافة الإسلامية التي نشأت وترعرعت إبان الاحتلال الأجنبي، فقد أدت هذه الصحافة دورها على أكمل وجه وهو الدفاع المستميت عن الأمة ومقوماتها، وبين صحافة اليوم التي يختلف سياقها جذريا عن سياق الصحافة الإسلامية السابقة. فمفهوم رجل الإعلام اليوم يختلف عن مفهوم رجل الإعلام "المناضل والمجاهد والإصلاحي والمفكر" الذي كان خلال رحلة النضال لاسترجاع الأرض. فمفهوم رجل الإعلام اليوم هو الحرفي أو المهني

الذي ينطلق من قيمة معينة كمرجعية ومرتكز ومركز رؤية، أي أنه ذلك الصحفي الذي يجاور بشكل متفاعل بين الوسيلة والرسالة والقيمة.

الهوامش:

(1) جمال سلطان، الإعلام الإسلامي في عالم جديد، وثيقة بدون تاريخ.

(2) انظر: عزي عبد الرحمن، الإعلام الإسلامي تعثر الرسالة في عصر الوسيلة، حوليات جامعة الجزائر، العدد 4، 1989، ص: 35-45.

(3) فؤاد توفيق العاني، الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، ص: 60.

(4) عبد القادر طاش، الإعلام وقضايا المجتمع الإسلامي، مكتبة العبيكان، الرياض، 1995، ص: 51-69.

(5) انظر: عبد العزيز شرف، الصحافة المتخصصة ووحدة المعرفة، عالم الكتب، القاهرة، 2003، ص: 191.

(6) عبد العزيز شرف، المرجع نفسه.

(7) انظر: فؤاد توفيق العاني، الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1993، ص: 34-35.

(8) فؤاد توفيق العاني، المرجع السابق نفسه، ص: 35.

(9) فؤاد توفيق العاني، المرجع نفسه.

(10) عبد العزيز شرف، المرجع السابق، ص: 191.

(11) تختلف المراجع في تواريخ هذه الصحف ومكان إصدارها وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على تصنيف فؤاد توفيق العاني لأن كتابه خاص بالصحافة الإسلامية، ويبدو أنه أكثر دقة من الباحثين الآخرين.

(12) عبد اللطيف حمزة، قصة الصحافة العربية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ص: 147.

(13) عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق نفسه.

(14) انظر: منير بكر التكريتي، الصحافة العراقية واتجاهاتها، ص: 142 في فؤاد توفيق العاني، الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة، المرجع السابق، ص: 37.

(15) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، ص: 28-100.

(16) محمد ناصر بن عباس، موجز تأريخ الصحافة السعودية، ص: 30-78-96.

(17) محمد عبد الرحمن الشامخ، الصحافة في الحجاز، ص: 161.

(18) فؤاد توفيق العاني، المرجع السابق نفسه، ص: 40.

(19) انظر: يوسف أسعد داغر، قاموس الصحافة اللبنانية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، لبنان، ص: 96. في فؤاد توفيق العاني، ص: 40.

(20) مجلة الدارة، العدد 3، 4، الرياض، ص: 251.

(21) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الصحافة العربية في فلسطين، ص: 71-90.

(22) ظهرت هذه الجريدة بقرار من الأمير بولينياك، لنشر أخبار الجيوش وانتصاراتها وبالتالي الرد على الدعاية ضد الحكومة وهي لخدمة الأغراض الكولونيالية. وقد أعطى منفذ ومتبني هذا المشروع الجنرال "دوبورمون" هذه الجريدة قيمة كبرى

وذلك لأنها تعتبر بالنسبة للحكومة أو لرئيسها على الأصح في نفس المستوى مع الوحدات العسكرية المتوجهة إلى غزو الجزائر.

(23) Zahir Ihaddahen, Histoire de la presse indigène en Algérie des origines jusqu'au 1930, en le prise nationale du livre, Alger, 1983, p : 36.

(24) يمكن هنا ذكر جريدة "الجزائر" التي أصدرها عمر راسم سنة 1908، وجريدة "ذو الفقار" سنة 1913 تحت اسم مستعار هو "ابن منصور الصنهاجي"، واعتبر الشيخ محمد عبده مديرا روحيا للجريدة ونسبها إليه.

(25) غنية جمال، جريدة البصائر ودورها الإصلاحي، السلسلة الثانية، مذكرة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2004/2003، ص: 87.

(26) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، ص: 253.

(27) محمد ناصر، الصحف العربية، ص: 54.

(28) توقفت المنتقد بقرار من وزارة الداخلية الصادر في 29 أكتوبر 1925، انظر Collot, opcit, p : 396 ومحمد ناصر، الصحف العربية، ص: 55.

(29) الشهاب، ج 4، م 14 (جوان/ جويلية 1938) في غنية جمال، مذكرة ماجستير، المرجع السابق نفسه، ص: 97.

(30) غنية جمال، المرجع السابق نفسه، ص: 99.

(31) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص: 167.

(32) ZAHIR Ihaddaden, Ibid, p : 59.

(33) ZAHIR Ihaddaden, Ibid, p : 61.

(34) Claude Collot, Le Régime juridique de la presse Musulmane algérienne, Revue Algérienne des Sciences juridiques, économique et politique, volume 1, N 2, MARS, 1969, p : 350.

(35) تبقى هذه المعلومة غير مؤكدة.

(36) يفترض أن يكون هذا الرقم غير صحيح لأن عدد هذه الصحف قد يزيد إذا أخذنا بعين الاعتبار الصحف الأخرى التي لم تعلن عن اتجاهها وقد اتضح أنها ذات مرجعية إسلامية.